﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: 58]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد إيراد قدرة الله تعالى على الحفظ والتَّمكين؛ أورد قدرتَه على الإهلاك

لمّا ذكر النَّظمُ الجليل أنَّ الله تعالى قادرٌ على "التأمين والإنجاء، والتَّمكين معَ الضَّعفة؛ أتبعَه الإعلامَ بقُدرته على الإخافة والإهلاك مع القوَّة؛ ترغيبًا لهم - إن آمنوا - بإهلاك أضدادِهم، وترهيبًا - إن أصَرّوا - منَ المعاملة بعَكْسِ مُرادِهم"[1].

ومن المناسبة أيضًا: أنَّه تعالى لمّا ردَّ على شبهتهم بالرَّدِّ الأوَّل مبيِّنًا ما خَصَّ به أهلَ مَكَّة منَ النِّعم؛ أتْبَعَه بردٍّ آخر، مَفادُه: أنَّه تعالى قد أنزل على الأمم الماضية ما شاء مِنَ العذاب، فأزال عنهم النِّعمَ، وأحلَّ بهم النِّقمَ، ثمَّ أتْبَع ذلك ببيان أنَّ مِن سُنَّته تعالى أنَّه لا يُهلِكَ قومًا إلّا في حالة إرسال رسولٍ مبشِّرٍ ومنذِر[2]، أي: فإذا أصرُّوا على حُجَّة التَّخطُّف مِن أرضهم، أريناهم ما هو أسوأُ مِن ذلك.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَطِرَتْ﴾: أصلُ (بطر) يَدُلُّ على الطُّغيانِ في النِّعمة[3]، والبَطَرُ: الأشَرُ، وهو شِدَّةُ المَرح[4]، يقال: بَطَرَ فلانٌ نِعْمةَ الله، أي: كأنَّه مَرِحَ حتّى جاوزَ الشُّكْرَ، فتركَهُ وراءَه[5]، والبَطَرُ كذلك: دَهَشٌ يعتري الإنسانَ من سوء احتمالِ النِّعمة، وقِلَّة القيام بحقِّها، وصرفِها إلى غير وجهها، والمراد بالبَطَر في الآية: الطُّغيان بالنِّعمة[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 326.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 76.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بطر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (بطر).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بطر).
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 424.

2) ﴿مَعِيشَتَهَا﴾: (عيش) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على حَياةٍ وبَقاءٍ، قالَ الخَليلُ: العَيْشُ: الحَياةُ، والمَعيشَةُ: الَّذي يَعيشُ بِها الإنسانُ؛ من مَطْعَمٍ ومَشْرَبٍ وما تَكونُ بِهِ الحَياةُ، والمَعيْشَةُ والمَعيْشُ: اسْمٌ لِما يُعاشُ بِه[1]، والعَيْشُ: المَصْدَرُ الجامِعُ، والمَعاشُ يَجْري مَجْرَى العَيْشِ، تَقولُ: عاشَ يَعيشُ عَيْشًا ومَعاشًا، وكُلُّ شَيْءٍ يُعاشُ بِهِ أوْ فيهِ؛ فَهوَ مُعاشٌ[2]، وقَولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةَ ضَنكًا﴾ [طه: 124]، سُمّيَ بِهِ الشَّيءُ الَّذي يَحْصُلُ بِهِ العَيْشُ، تَسْميَةً لِلشَّيْءِ بِاسْمِ سَبَبِهِ، على طَريقَةِ المجازِ الَّذي غلبَ حتَّى صارَ مُساويًا للحَقيقَةِ، فالمَعيشَةُ في الآية اسْمُ مَصْدَرٍ بِمَعْنَى العَيْشِ والمُرادُ حالَتُهُ، فَهوَ عَلَى حَذْفِ مُضافٍ دَلَّ عَلَيْهِ المَقامُ، ويُعْلَمُ أنَّها حالَةٌ حَسَنَةٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿بَطِرَتْ﴾، وهيَ حالَةُ الأمْنِ والرِّزْقِ[3].

3) ﴿ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: أصلُ (ورث) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، هيَ الوِرْثُ، والميراثُ أصْلُهُ الواوُ، وهوَ أنْ يكونَ الشَّيءُ لِقَوْمٍ، ثُمَّ يَصيرَ إلى آخَرينَ بِنَسَبٍ أوْ سَبَبٍ[4]، يُقالُ: ورِثَ أباهُ، يَرِثُه، إرْثًا، فهو وريثٌ، أي: صارَ إلَيْه مُلْكُهُ بعد مَوْتِه، واللهُ ﷻ يَرِث الأرْض ومَن عليها، وهو خيرُ الوارثين، أي: يَبقى، ويَفْنى مَن سواهُ، فَيرجع ما كانَ مُلك العِباد إليه وحْدَه لا شريك لَهُ[5]، والمقصود بالإرْثِ في الآية: البَقاءُ بعدَ الموجودات تَشْبيهًا للبقاء بالإرْثِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإصـــرارُ على الـكـفـر يُـزيـلُ النِّعَم

يقول اللهُ تعالى: وكثيرٌ مِن أهل القُرى كانت حالُهم كحال هؤلاء في الأمن وخفض العيش، والدَّعة والاطمئنان، حتّى بَطِروا، واغتَرّوا،

(1) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عيش).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عيش).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - ب/ 34، و20/ 150.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورث).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ورث).

ولم يقوموا بحقِّ النِّعمة منَ الشُّكر عليها بالإيمان، فأهلَكَهم، وأزالها عنهم، فتلك بُيوتُ القَوم الَّذين أهلَكْناهم، لم يَسكُنْها أحَدٌ مِن بعْدِ هلاكِهم إلّا قَليلًا مِن السُّكْنى حينَ يَنزِلُ بعضُ المارَّةِ فيما بَقيَ منها، وكُنّا نحنُ الوارثينَ لِمَساكِنِهم، ولم يَملِكْها أحدٌ مِن بَعْدِهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في: ﴿وَكَمْ﴾:

مَـن لـم يـأتِ بالتَّرغيب؛ يأتِ بالتَّرهيب

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾، على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ الآية، ولمّا دَلَّ الاستفهامُ على الإنكار والتَّوبيخ والتَّقريع؛ اقتضى ذلك تذكيرَ قريشٍ بما وقع من إهلاكٍ للأقوام الذين كفروا بنِعَم الله تعالى، والمُراد تخويفُهم من غمط النِّعْمة وجَحْدها[2]، ويجوز أن تكون الواوُ في قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ واوَ الحال، فتكون هذه الآيةُ حالًا مِن ضمير: ﴿نُمَكِّن﴾، والمعنى: فعَلْنا بهم ما ذكرنا مِنَ النِّعمة مع ضعفهم وعَجْزِهم، والحالُ أنَّا كثيرًا ما أهلكنا الأقوياء[3]، فتكون هذه الآيةُ من تمام ما قبلَها، وتقريرًا وتحقيقًا للامتنان فيها، ومِن جديد المعنى فيها: التَّهديد بالتَّعرُّض لقريشٍ، ومن لم يؤمن منهم بالانتقام والهلاك؛ شأنُهم شأنُ الأُمم التي كفرت بأنعُم الله، فأذاقها اللهُ لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

دلالةُ ﴿وَكَم﴾:

كـثـرةُ الأُمـم الـتـي أُهـلِـكَـت بسبب كُـفـرِها وجُـحـودهـا النِّعم

عبَّر النَّظمُ الجليل بـ (كم) الخبريَّةِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾؛ للدِّلالة على تكثير تلك الأُمم التي

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 540، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 301، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 328، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 7/ 1793.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 150.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 505.

أُهْلِكَت بسبب كُفرها وجُحودها النِّعم[1]، وكان من الممكن أن يقال: (وقد أهلكنا من قرية) إلخ، لكن عُبِّر بـ (كم)؛ زيادةً في التَّخويف والتَّهديد، وتحقيقًا للامتنان بما هم فيه مِن نعمة الحَرَم الآمِن.

دلالةُ التَّعبير بالإهلاك:

إهـلاكُ القُرى كائنٌ بإفساد العيش فيها، وتخريبها، وجَعْلِها خَواء

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الإهلاك في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾؛ للدِّلالة على إفساد عيشتهم؛ فإنَّ هَلاك الشَّيء يكون باستحالةٍ وفسادٍ، كقوله: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة: 205][2]، فأُخْبِرَ بالإهلاك عن تخريب ديارهم، واستحالتِها خاويةً خَرِبَةً، وهذا غايةُ التَّهديد بالانتقام؛ إن أصَرُّوا على شُبْهة التَّخطُّف مِن أرضهم.

نُكْتَةُ إسنادِ الإهلاك إلى نون العَظَمة:

إهـلاكُ اللهِ تعالى الأُمَمَ يتَّصفُ بالعَظَمة والقوَّة

أسند النَّظمُ الجليل فعلَ الإهلاك إلى نون التَّعظيم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾؛ للدِّلالة على تعظيم الإهلاك، أي: أهلكناها بما لنا منَ العَظَمة، والتَّخويفُ والتَّهديدُ على ذلك قويٌّ، وهذا الإسنادُ يُشاكِلُ الإسنادَ في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ﴾، وقولِه تعالى: ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾، ووراءَ ذلك مِنَ المعنى: أنَّكم إذا تجاهلتُم عَظَمةَ اللهِ جلالًا وجمالًا في الإنعام، فلم تنقادوا له سبحانه؛ شاهدتم عَظَمةَ جَلالِه في الانتقام، وتمنَّيتُم ساعتَها أن ترجعوا إلى ما كنتُم فيه، وهَيْهات هَيْهات!

معنى ﴿مِن﴾، ودلالة التَّعبير بالقرية:

كثرتِ الأُممُ الهالكة كَثْرةً مُؤكَّدة

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ للدِّلالة على تأكيد التَّكثير الذي دلَّت عليه (كم) الخبريَّة، فإنَّ ﴿مِن﴾ عند دخولها على نكرة تفيد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 20.
(2) الرّاغب، المفردات: (هلك).

التَّكثيرَ[1]، والأصل: (وكم قرية بطرت معيشتها)، وهذا إمعانٌ في إرعابهم وإيقاظهم مِن غفلة العناد والإصرار على المخالفة بالشِّرك والكفر، وأمّا التَّعبيرُ بالقرية؛ فمجازٌ مرسل عن أهلها، فإذا كان الإهلاك متسلِّطًا على القرية؛ كان شاملًا أهلَها - لا محالة - فهو هلاك الاستئصال، وهذا الإهلاكُ حاصلٌ مع قوَّة أهل القرية؛ لتجمُّعهم واتِّحادهم، فأين قوَّتُهم وبأسُهم مِن قوَّة الله وقُدْرته؟.

بلاغةُ إسناد البطر إلى القرية في ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾:

بَـطَـرُ النِّـعـمـة صفةٌ جامعة بينَ الـقـرى المُهلكة وقريش

وصَفَ النَّظمُ الجليل القرى التي أهلكها بالجملة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾، وفائدة هذا الوصف الإشارةُ إلى عِلَّة إهلاكها، وذلك أنَّ أهلها بَطِروا في زمان عيشهم الرَّخي الواسع، وفي ذلك إيماءٌ وتعريض للمخاطَبين من قريش، بأنَّ حالَهم كان كحالكم في الأمن وإدرار الرِّزق، فأهلكهمُ اللهُ؛ لمّا بَطِروا معيشتَهم[2]، وقد أسند النَّظمُ الجليل البطر إلى القرية في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ على طريقة المجاز العقلي، فإنَّ البطر إنَّما هو من فعل أهلها، فذكر المكان، وأراد السّاكن فيه وأهله، أو على تقدير مضاف محذوف، أي: بطِرتْ أيامَ معيشتها، وحالةَ عيشها الحسنة[3].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿بَطِرَتْ﴾:

تـــكـــبَّروا عـن شكْرِ المُنعَّم مع تنعُّمهم بنِعمه الكثيرة

عبَّر النَّظمُ الجليل بفعل البَطَر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾؛ للدِّلالة على تكبُّرهم عن شُكر النِّعمة، وهو هنا يتضمَّن معنى الكُفر؛ لأنَّ التَّكبُّرَ عن شُكر النِّعمة يقتضي عدمَ الاعتراف بها[4]. فالمُراد: تركُ شُكرِ النِّعمة ومُداراتِها بالنَّظر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 327.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 327.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 423.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 150.

إلى المُنعم وشكْرِه وتوحيده، فإنَّه مأخوذٌ مِنَ البَطَر، وهو الأشَرُ، وقِلَّةُ احتمالِ النِّعمة، والدَّهَشُ والحَيْرةُ والطُّغيان بالنِّعمة، والفعلُ مِن كلٍّ هذه المعاني كـ (فرح)، وبَطَرُ الحَقُّ: أن يتكبَّر عنه، فلا يقبلَه، وبطَرَه كـ (نَصَرَهُ وضَرَبَهُ): شَقَّه، والبَطور: الصّخّابُ الطَّويلُ اللِّسان، والمُتمادي في الغَيِّ[1]، فهذه الكلمة إنَّما توجز حالَ مِثْلِ قريش؛ مِمَّا يستوجب إهلاكَهم، وإسنادُ الفعل إلى ضمير القرية - التي هي مؤنَّثٌ لفظيٌّ - تحقيقٌ للمجاز المُرسل في قوله: ﴿قَرْيَةٍ﴾، فهذا الإسناد مؤسَّسٌ على هذا المجاز المُرسل، فلا يجوز القولُ بأنَّ هذا الإسنادَ قرينةٌ على الاستعارة المكنيَّة في: ﴿قَرْيَةٍ﴾، التي شُبِّهت بمَن يكون منه البطرُ، وامتدادُ المجازِ الجُزئيّ أيًّا كان نوعُه مِن وجوه حُسْنِه؛ فإنَّه بسببه يقترب مِنَ المجاز المُركَّب، والمجازُ المركَّبُ أبلغُ في ذاته مِنَ المَجاز الجُزئيّ.

دلالةُ الإضافة في ﴿مَعِيشَتَهَا﴾:

أضاف النَّظمُ الجليلُ المعيشة إلى ضمير القريةِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾، وهذا استمرارٌ للمجاز المُرسل في ﴿قَرْيَةٍ﴾ وتحقيقٌ له؛ للدَّلالة على أنَّ البطر وقع على المعيشة التي عاشوها، ويعرفونها، ويعرفون أنَّها تقتضي الشُّكرَ، فعَيشُ الحياةِ يستلزم معرفةَ النِّعَم وإدراكَ أهمّيَّتها، واقتضاءَ شُكرِ المُنعِم، وهذا يعني أنَّ هذا الهلاكَ هلاكُ الاستئصال؛ لشموله كلَّ النِّعَم التي مُكِّنت لهم في القرية، ويَدُلُّ أيضًا على شِدَّة الإنكار عليهم، فهُم نَكَروا ما علموا، وتنعَّموا به، وقوله: ﴿مَعِيشَتَهَا﴾: هو على تقدير مضاف محذوف، أي: بَطِرت أيامَ معيشتها، وحالةَ عيشها الحسنة[2].

تنعَّموا بمعيشتهم التي علموا اقتضاءَ شُكرِها، فجَحَدوا أبلغَ جحود

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 506.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 423.

معنى (الفاء) في: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾:

تفصيلُ البيانِ عن شيءٍ، يُحَرِّك لمعرفة ما غاب عنه أكثر

افتتح النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ بالفاء الدّالَّة على السَّببيَّة؛ لأنَّه لمّا أخبر عن إهلاك الأُمم، تطلَّعتِ النَّفسُ إلى رؤيةِ آثار تلك الدّيار ومعرفتِها[1]، ففاءُ السُّرعةِ هي صورة معنى تشوُّف المُتلَقّين إلى آثارهم، فأشار إلى مساكنهم الباقية للتَّدليل على فناء أهلها.

مرجعُ الإشارة في (تلك)، ودلالةُ البُعْد فيها:

مساكنُهم التي نالت إهلاكًا عظيمًا حاضرةٌ شاخصة بحيثُ يُشارُ إليها

عبَّر النَّظمُ الجليل باسم الإشارة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ للإشارة إلى مساكنهم، وفائدةُ الإشارة: بيانُ أنَّ تلك المساكنَ حاضرةٌ بحيثُ إنَّها يُشار إليها، فهي حاضرةٌ في الذِّهن، فأنزلها منزلةَ ما يشاهِدُه السّامِعُ[2]، وقد جاء التَّعبير بصيغة البُعد؛ للدَّلالة على بُعد رتبتِها في الهلاك.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾، دون غيرها:

كان عذابُ أهلِ القريةِ حسّيًّا ومعنويًّا

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ (المساكن)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لأنَّ السُّكنى تدلُّ على الحلول في المكان المُتَّخَذ للسَّكن في الأوقات المعروفة، بقصد الاستمرار زمنًا طويلًا[3]، فعبَّر بالمساكن؛ لأنَّهم اتَّخذوها للسَّكن والإقامة الطَّويلة لوفرة النِّعم، فكانت متناسقةً بهذا مع التَّعبير بالمعيشة في قوله: ﴿مَعِيشَتَهَا﴾، ومع قوله: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾، ولكنَّهم فقدوا ذلك بالإهلاك بسبب إعراضهم وجحودهم، وفي التَّعبير بها إيماءٌ إلى أنَّ هلاكَها قد صاحَبَهُ عذابُهُم النَّفسيُّ؛ لأنَّها كانت مَحَلًّا لسَكَنِهم وهدوئِهم وراحتِهم وأمانِهم.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 328.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151.

لطيفةُ الإضافة في ﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾:

في الإضافة تحقيقٌ لكَوْن هلاكِهم استئصالًا

أضاف النَّظمُ الجليل المساكنَ إلى ضمير الغائب في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ تلك المساكن التي لم تُسْكَن من بعدهم لانقراض أهلها[1]، بما في الإضافة مِن معنى: أنَّها هي مساكنهم هم دون غيرِهم، فكأنَّهم اختصّوا بميزة بقاء مساكنهم خاويةً خاليةً مِنَ السُّكّان.

عِلَّةُ فصل جملة ﴿لَمْ تُسْكَن﴾ عمّا قبلَها:

التَّفصيلُ في مقام التَّرهيب يشتدُّ به التَّرهيبُ

فصَلَ النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لأنَّها مستأنفة استئنافًا بيانيًّا[2]، فكأنَّه قيل: لأيِّ اعتبار أُشير إلى مساكنهم؟ فقيل: أُشير إليها لِخُلوِّها من أهلها وانقراضِهم، ومعنى قوله: ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾: لم يتركوا فيها خَلَفًا لهم، وذلك للكناية عنِ انقراضهم عن بكرة أبيهم[3]، وهذا المعنى تفصيلٌ لدلالة إضافةِ المساكن إليهم بالإفصاح بها، وهو أيضًا لازمٌ عنِ الجملة السّابقة: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ في نور قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾؛ مع ضميمة استحضار المجاز المرسل، فكان بين هذه الجملة وجملة: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ كمالُ اتِّصالٍ مِن نوع التَّوكيد المعنويِّ.

دلالةُ بناء المضارع ﴿تُسْكَن﴾ للمفعول:

هُجِرت ديارُهم حتّى صارت أطلالًا

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المبني للمفعول في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مساكنهم لم يسكنها أحدٌ ممَّن احتاج للسَّكن فيها، مختارًا أو مضطرًّا[4]، وصيغةُ المُضارعة أضافت على هذا معنًى زائدًا، وهو استمرارُ عدمِ سَكَنِها مِن أحد، فكلَّما تجدَّدت رؤيتُها لأحد؛ لم يُقْبِل عليها للسُّكْنَى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 277.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 328.

دلالةُ الظَّرفيَّةِ والإضافة في: ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾:

بعدَ النِّعَمِ الوفيرةِ استحالت ديارُهم خَرِبةً شاحبة

عبَّر النَّظمُ الجليل بالظَّرف الزَّمانيِّ في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ انتفاء السَّكن وقع بعدَ الإهلاك لا قبلَه، فإنَّ نِعمَهم كانت قبلَ ذلك وفيرةً، وحياتَهم رغيدة، ولكن بطروا؛ فأُهلكوا، ولمَّا كان المُرادُ إفهامَ نفي قليل الزَّمان وكثيره؛ أثبت الجارَّ ﴿مِّنۢ﴾ فقال: ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾[1]، وإضافةُ البعديَّةِ إلى ضمير ذواتهم قرينةٌ مِنَ القرائن التي في الآية على المجاز المُرسل في قوله: ﴿قَرۡيَةٖ﴾، وفي إضافتها على ظاهر اللَّفظ تحقيقٌ لكون هلاكهم هلاكَ استئصال، وإبلاغٌ في هلاك معيشتِهم وقريتِهم؛ إذِ اللَّفظ على تقدير مضاف، والتَّقدير: (بعد أن طال ما تغالَوا فيها، ونمَّقوها، وزَخْرَفوها، وزَوَّقوها، وزَفُّوا فيها الأبكار، وفرحوا بالأعمال الكِبار)[2].

دلالةُ الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾:

في الاستثناء دعوةٌ إلى الاعتبار والاتِّعاظ

استثنى النَّظمُ الجليل من السَّكن في تلك الدِّيار بالسَّكن القليل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، وفائدة الاستثناء هنا الاحتراسُ من تعميم النَّفي، أي: إلّا إقامةَ المارّين بها، المُعْتَبرين بهلاك أهلها[3]، والاستثناء على هذا منقطعٌ؛ لأنَّ السَّكن في المستثنى منه إنَّما هو للعيش والإقامة والرّاحة، وأمّا السَّكن في المُستثنى؛ فللاتِّعاظ والاعتبار.

دلالةُ القِلَّة في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾:

في القِلَّة تحقيقٌ لخراب الدِّيار، وأنَّها لم تسكن مِن بعدهم

أخبر النَّظمُ الجليل أنَّ السُّكنى في القرية بعد الإهلاك قد وقع قليلًا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، أي: إلّا سُكونًا قليلًا؛ للدَّلالة على قِلَّة السّاكنين الذي يَأوون إليها أثناءَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 50.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 50.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151.

مرورهم بالطَّريق[1]، فالقليلُ هنا أفاد الاحتراسَ من انتقاض النَّفي بهذا القليل المارِّ بالدّيار، فالكثيرُ الغالب الدّائم هو عدمُ سكنِها من أحد، والسَّكَنُ المُقدَّر قبلَ قوله: ﴿قَلِيلًا﴾، هو مطلقُ الحلول بغير نيَّة إطالةٍ، فهو إلمامٌ لا سُكنى، فإطلاقُ السُّكنى على ذلك مشاكَلةٌ؛ ليتأتَّى الاستثناء، أي: لم تُسكن إلّا حلولَ المسافرين، أو إناخةَ المُنتجعين، مثلَ نزولِ جيشِ غزوةِ تبوكٍ بحِجْرِ ثمود، واستقائِهم من بئر النّاقة، والمعنى: فتلك مساكنُهم خاوية خلاء، لا يعمرُها عامرٌ، أي: إنَّ الله قدَّر بقاءَها خاليةً؛ لتبقى عِبرةً وموعظةً بعذاب الله في الدُّنيا[2].

معنى (الواو) في: ﴿وَكُنَّا﴾:

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، على الجملة في قوله تعالى: ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾، فلمّا نُفيَ حلولُ السّاكنين فيها، عُطِفَ عليه أنَّها باتت إرثًا لله تعالى؛ تأكيدًا لانتفاء حلول الأقوام فيها[3].

خَـلَـتِ الـقُـرى مِـن سكّـانـهـا واستحالت وِرثًا لخالقها

دلالةُ التَّعبير بالكون الماضي:

عبَّر النَّظمُ الجليل بفعل الكونِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾؛ للدَّلالة على كون وراثته مقرَّرةً أزلًا وأبدًا[4]، فهو دالٌّ على الأُلوهيَّة، أي: إنَّ من شأننا أن نَرِثَ تلك المساكنَ، وليس ذلك إلّا لله، وفيه إشارة إلى أنَّ حلول الأقوام في تلك القرى أمرٌ طارئ لمدَّة قصيرة منَ الزَّمان - وإن طالت إلى ألف سنة - بالنِّسبة إلى إرث الله إيَّاها.

الأرض للـــه يـورثُـهـا مَـن يشاء، ويسلبها ممَّن يشاء

نكتة التَّعبيرِ بضمير العَظَمة في (كنّا) و﴿نَحْنُ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بضمير العَظَمة (كنّا) و﴿نَحْنُ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾؛ للدِّلالة على تعظيم مضمون الخطاب،

بـعَـظَـمـةِ الله تعالى وجَلالِهِ صـارت الـقُـرى إرثًـا خاليَةً من أهلها

(1) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 116، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 506.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 330.

فَوراثتُه تعالى لما له مِن عَظَمة، وفي ذلك تفخيمٌ للسّياق؛ ولأنَّ التَّصرُّف في هذه الأماكن وغيرِها مِن أماكن الأرض يَدلُّ المُتلَقّي على كمال عَظَمة الله تعالى؛ إذْ لا متصرِّفَ فيها ظاهرًا إلّا الله، ولا حاكمَ عليها فيما تنظرُه العيونُ سواه، وذلك أمرٌ عظيم، وخطبٌ جسيم؛ لأنَّه لا فرقَ فيه بين جليلٍ وحقير، وصغيرٍ وكبير، وسُلطانٍ ووزير، وتعدادُ صيغةِ العَظَمة بيانٌ لضخامتها وضخامةِ هذا الإرث، فسبحانَ المالكِ لكلِّ شيء، وهو على كلِّ شيءٍ قدير[1]، كما أفاد التَّصريحُ بضمير التَّعظيم المنفصل، إلى اقتصار ذلك الإرثِ على الله تعالى، وهو قصرٌ حقيقيٌّ، أي: لا يَرِثُ تلك القُرى غيرُ اللهِ تعالى[2].

دلالةُ التَّعبير بلفظ الوراثة:

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الوراثة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾؛ لأنَّها لمّا استحالت خاليةً منَ السّاكنين؛ عبَّر بالإرث عن كونها لم تسكن بعدَهم، أي: تركناها على حالٍ بحيثُ لا يسكنُها أحدٌ، وأشار بالوراثة إلى انتقالها من أصحابها، وأنَّها قد أُلحقت إلى ما خلقَهُ اللهُ تعالى على أصله الأوَّل، فرجع إلى أصله ودخل في عِداد ملك اللهِ تعالى على وضعه الأوَّل، وهذا معنى الإرث[3]، "وكونُ اللهِ تعالى هو الوارث كنايةٌ عن حِرمان تلك المساكن منَ الساكن، وتلكَ الكِنايةُ رَمزٌ إلى شِدَّة غضبِ الله تعالى على أهلها الأوَّلين، بحيثُ تجاوزَ غضبُهُ السّاكنين إلى نفس المساكن، فعاقبَها بالحِرمان من بهجة المساكِن؛ لأنَّ بهجةَ المساكن سُكّانُها"[4]، والتَّعريف بـ (أل) دالٌّ على الجِنس، وإنَّما عرَّفه بالألف واللّام؛ ليتأتّى القصرُ بالتَّعريف، أي: لا وارثَ من جنس الوارثين يَرِث أرضَ تلك الأقوامِ غيرُ ربِّها وموجِدِها.

لا مُتصرِّف في القُرى بعد إهلاكها إلّا الله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 506.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 305.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 151 - 152.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والأربعون،
سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 41 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-92-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 41 : المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-92-1
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-2914887 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»